اية لحظة ، فاذا أضفنا الى ذلك ان التنظيمات المقاومة هي اصلاً ـ في معظمها ـ لا تهيء بنـاها التنظيمية لممارسة مثل ذلك التحول الضروري في اية لحظة ، وهي غالباً ما تتجه نحو بنية تنظيمية صخرية أو صنمية غير مؤهلة لمثل ذلـك التحول ، أدركنا على التو خطورة هذه المعضلة . على أن ثمة معضلة أخرى ربما تكون موازية في الأهمية وهي أثر «الانفعالية» على التنظيم ، هـذا الأثر الذي غالباً ما يؤدي الى نتائج خطيرة ،لأنه يحكم تنظيماً ما بعقدة رد الفعل ، فينحرف نشاط عناصر ذلك التنظيم القيادية ، ومن ثم غير القيادية ، نحو اتجاه يبتعد شيئاً فشيئاً عن صلب المهمات الثورية التي انتدب التنظيم المذكور نفسه للقيام بها اصلاً .

ان مثل هذا الخطر يكون بالطبع أكثر احتمالاً في التنظيمات التي تنبثق من عملية انشقـاق حزبي ، اذ يصبح المحرك الأول للطرف المنشق ـ (الذي يكون عادة على معرفـة بالشيء الذي لا يريده ، أكثر من معرفته بالشيء الذي يريده) ـ هو اثبات مبرر انشقاقه وبالتـالي وجوده ، اثباتاً يومياً . فاذا خذلته الحقائق الموضوعية في هذا المجال أخذ دون أن يعي يفتعلها افتعالاً : انه يفقد بالتدرج الرؤيا العلمية للمرحلة ، ويلجأ الى المزايدات النظرية والاعلامية ، ثم انه ـ في معرض تأكيد مبرراته ـ يعمل عن وعي أو عن غير وعي في التركيز على محاولات تهشيم التنظيم الذي انشق عنه ، وفي أحيان كثيرة لا تأخذ هذه الظاهرة طابـع الهم اليومي والأهم والأعجل فقط ، بل تكون أيضاً مضطرة ـ بالتدريـج ـ لافتعال حملة مصطنعة من الاكاذيب والشائعات والاتهامات لتعينه على المضي في تلك المهمة . ويتعرض الطرف الأصلي الذي كان ارض الانشقاق لخطر مماثل اذ تؤدي تلك الحملةبالطبيعة الى ردة فعل تشنجية يتوقف التخلص من آثارها بمقدار كبير على سلامة البنية التنظيمية التي تكون عادة أقدر ، بحكم قناعتها برسوخها وتجذرهـا الزمني ، على تجاوز تأثيرات تلك الشحنة الانفعالية . ولا شك ان مثل هذه الظاهرة الانفعالية، ان هي تركت حتى مداها ، تؤدي الى انعكاسات تنظيمية خطرة ، فهي تهدم سلم الاوليات النضالية ، وتقود الى توجيه التنظيم برمته وجهة معركة جزئية مفتعلة في أساسها ، وذلك على حساب نقطة الثقل في المعركة . وغني عن القول ان مثل هذا الأمر ـ ان هو حدث في معسكر اليسار ـ يقود الى فتح الباب على مصراعيه ليس فقـط امام انهاك قوى الثورة التي ترشح نفسها لقيادة عملية التغيير ، ولكن حتماً أمام دخول أبوة اليمين والوسط .

على ان هذه الظاهرة الانفعالية ، على الصعيد التنظيمي ، ليست مقتصرة في اصولها على التنظيمات الاطراف في عملية انشقاق حزبي ـ (والتي شهدتها حركة المقاومة في العام الماضي وما تزال تشهد ذيولها) ـ ولكنها تشكل ايضاً احتمالا أمام تنظيمات أخرى لم تكن طرفاً في انشقاق ، وتثيرها بشكل خاص ظواهر التعدد في التنظيمات ، وحوافز الانفراد والوصاية ، وتضرمها قوى محرضة من خارج الثورة . ان ذلك كله يعكس نفسه تنظيمياً ، ليس فقط على الكفاءات السياسية والقتالية لحركة المقاومة ، وعلى حجم الالتفاف الجماهيري حولها ، ولكن ايضاً على طريقة وأسلوب تناول قضايا استراتيجية بالغة الاهمية ، مثل قضية جبهة التحرير الوطنية ، ووحدة الكفاح المسلح ، ومواجهة عدو راهن وعدو محتمل والى آخر ما هنالك .

ذلك هو جانب من أهمية ومحورية المسألة التنظيمية وانعكاساتها على مسيرة الثورة ، على انه

في مرحلة الشروع بالكفاح المسلح تبرز جوانب تكاد تكون أكثر اهمية على صعيد الممارسات وعلاقاتها بالتنظيم ، لانه في حالة من هذا النوع لا تكون الاخطاء التنظيمية مجرد اخلال بالقواعد ، ولكنها تكون عملياً ذات نتائج فورية تتعلق بمصير الثورة ككل ، وبدماء عناصرها . سنأخذ مثالاً واحداً على ذلك ، يمكنه ان يلخص المسألة التي نحن بصددها على صعيد عملي ، وهي مسألة القواعد العسكرية ، التي تشكل هنا ، وبالضبط تلك النقطة البالغة الاهمية التي يتبلور فيها على صعيد مادي ، مركز ذلك اللقاء بين المسألة النظرية والمسألة التنظيمية والمسألة العسكرية.

ما هي القاعدة العسكرية في الكفاح الفلسطيني الآن ؟ ما هو دورها ، الى جانب كونهـا نقطة قفز قتالية ؟ انها بالطبع شكل تنظيمي مكلف بلعب دوره عملياً لوضع النظرية موضـع التنفيذ . هل هي اذن ثكنة عسكرية لمجموعة مقاتلين نظاميين ، أو شبه نظاميين ، أو غـير نظاميين ؟ ان المحور الاساسي لهذا الترس الجبار ، المعقد ، الذي نطلق عليه اختصاراً « النضال في سبيل تحرير فلسطين » ، يجد في هذه القضية المفصل الاساسي في الموضوع كله . القاعـدة العسكرية لمجموعة من الفدائيـين ، في هذه المرحلة التي تحدد النظرية العلمية ـ كدليل عمل ـ طبيعتها وترتيبها الجدلي في المعركة كلها ، لا تستطيـع أن تكون الا بؤرة ثورية ، مكلفة بلعب دورها القتالي والسياسي ، من خلال المهمة الأساسية للثورة الفلسطينية الآن ، وهي مهمة العمل القتالي والسياسي لانضاج الظروف الموضوعية التي تقود نحو حرب التحرير الشعبية . ذلـك يعني بالضرورة الثورية الا تكون القاعدة ترجمة فلسطينية للثكنة ، ولكنها يجب أن تكون خلية ثورية ، عسكرية وسياسية في آن واحد ، تطوع عملها السياسي والعسكري لبناء منـاخ ثوري أكثر شمولاً واتساعاً .

ان عملها العسكري يرتبط ارتباطاً جدلياً بدورها التنظيمي كبؤرة ثورية تقوم بعمليـة دؤوبة لنقل المثل القتالي الذي تقدمه الى الجماهير ، لانشاء حوار بين نشاطها وبين الجماهير ، لنقل «العدوى» ـ اذا جاز التعبير ـ للواقع الساكن المحيط بهـا ، واجتذابه الى المعركة . كيف تستطيـع ان تلعب دورها هذا ؟كيف يمكن لها ـ بالممارسة ـ ان تعمم الموقف النظري والتنظيمي الذي يدعو كل مقاتل لان يكون سياسياً وكل سياسي لان يكون مقاتلاً ؟ ان هـذا السؤال يعيدنا الى النقطة المحورية في كل هذا الذي قلناه ، وهي تلك التي تشدد الى النهاية على تلـك العلاقة الجدلية الدائبة بين القضية النظرية وضرورتها ، وبين القضية التنظيمية واهميتها ، وبين قضية الممارسة واستراتيجيتها .

٣ ـ المعضلة العسكرية

ربما كانت هذه المقاطع الاخيرة قد أوصلتنا عمليـاً الى الحديث عن المعضلة العسكرية في المقاومة الفلسطينية المسلحة ، قبل ان نصل الى مكانها في « التصنيف المستحيل » . فالواقع أن ذلك المثال الذي اخترناه عن عمد ، لقضية القاعدة العسكرية في العمل الفدائي يشكل جانباً من جوانب هذه المعضلة ، اذ أن حلها هو مسألة أساسية ، لانها تحسم مسألة أن تصل المقاومة ،